المُتصابيَة

خلال الظروف السوداء التي مرت بها مصر في الأيام الأولى من ثورة 25 يناير 2011.. استقللتُ المترو من محطةِ شبرا قاصدًا محطة الدقي – مقر عملي في جريدة الدستور آنذاك – لفت انتباهي صوتها المرتفع ولهجتها الخشنة في أثناء حديثها بالموبايل.

خمسينية متصابية، ممتلئة الجسد، مقبولة الملامح، ترتدي عباءة سمراء بها بعض الفتحات الصناعية؛ لإظهار جزء من مفاتنها – غير الفاتنة – عمدًا. كانت تجلس على المقعد المقابل للمقعد الذي أجلس عليه.

أنهت السيدة مكالمتها بسرعة، كانت تتحدث مع «سي ناصر» زوجها – حسبما فهمت من المكالمة – وسرعان ما سمعت صوتًا من هاتفها لأغنية تخاطب الجسد لمطرب ومطربة من «بتوع» بير السلم.. وكان واضحًا من صوت الهاتف الصاخب المشوش أنه صيني الصنع.

نظرت إلى السيدة كالمستجير؛ آملاً أن تغلق هاتفها، أو تخفض صوت النغمة قليلاً، وحبذا لو صنعت معروفًا في الركاب، وأنهت هذه الأغنية التي أصابتني – كبقية الركاب – بنوع من الاستفزاز، لكن أمام سعادتها بتلك الكلمات الهابطة، لم تُبالِ بضجر من حولها. فجأة رن هاتفها، فتعطلت الأغنية؛ لترد على المتصل بلهفة

وحنين ممزوجين بدمعة حزن وألم وأسى.. سألت السيدة المتصل، وعلى ما يبدو أنه ابنها:

– إنت فين يا حبيبي؟ أنت فين يا كارم؟!.. ده أنا وبابا ما بطلناش سؤال عليك عند كل أصحابك ومعارفنا، وكمان ما سبناش قسم شرطة أو مستشفى ما سألناش عنك فيهم.

وتكرر السؤال:

– إنت كويس؟!.. والنبي كويس؟!.. طيب عاوزة أشوفك يا عمرى!

فجأة توقفت السيدة عن الكلام برهة؛ لتستمع إلى المتصل ودموعها تنهمر من مقلتيها، ثم سألته مجددًا:

– يعنى انت دلوقتي في ميدان التحرير مع المتظاهرين أصحابك يا حبيبي؟!.. طيب أنا دلوقتي راكبة المترو وقريبة منك قوي في محطة محمد نجيب. ممكن اجي لك حبيبي أشوفك بس واطمئن عليك. أصلك واحشني قوي قوي والله يا نور عيني.

واصلت السيدة حوارها في الموبايل ودموعها تسبق كلماتها، فتنصح محدثها:

– طيب خلّى بالك يا حبيبي من نفسك.. أصل أنا النهارده «شفتهم» بيسحلوا شابة من اللي بيقولوا عليهم بتوع 6 إبريل في الشارع، وعرّوا جسمها خالص لغاية «.....». ربنا ياخدهم قادر يا كريم.

وقف المترو للحظات في محطة محمد نجيب، وصعدت منها فتاة لا يتجاوز عمرها الـ 14 ربيعا، تحمل شنطة مليئة بالعطور والمكياج، ويا سبحان الله! فشلت في تسويق بضاعتها لكل الركاب، ما عدا السيدة البدينة، ولا أدري لماذا «تسمرت» أمامها؛ لتستحلفها بالله وبكل غالى عليها أن تستفتحها، فقالت لها

بصوت ذليل، وإيماءات ووجه رأس تشبه - إلى حد بعيد - حركات الهنود في أفلامهم:

- والنبي يا ستي، باين عليك طيبة وجدعة، اشترى منى أي حاجة. استفتحيني والنبي.

استأذنت السيدة محدثها ثوانٍ، لتنظر إلى الفتاة نظرة حنونة، وقالت لها:

- والنبي يا حبيبتي ما ني كاسفاك أبدًا، بكام إزازة الريحة دي؟

- بعشرة جنيه يا ستي، بس ليكي انتي، بخمسة جنيه بس.

- طيب يا قلبي، سبعة جنيه آهُمْ، خديهم وادِّيني إزازة، بس طالبة منك طلب.

- يا خبر يا ستي، اطلبي.

- تدعي لابني ربنا يرجعه لي بالسلامة.

أطلقت الفتاة العنان للسانها البريء؛ يدعو لابن الست أن يعود لأمه:

- ياااا رب.. ياااا رب.. يا رب رجعه لها بألف ألف سلامة، وطمنها عليه.

حدث كل ذلك على مدار 5 دقائق تقريبًا، بعدها عادت السيدة لمواصلة الحديث في هاتفها حوالى 3 دقائق أخرى، وقبل أن تنهي مكالمتها، ألصقت الهاتف بشفتيها، وظلت تقبله بلهفة كمن تخفف عن نفسها آلام الفراق للمتصل، أو تواسيه بشيء تعلم أنه يُحبِّذه.

هنا وجدت نفسي أسأل هذه السيدة:

- هو حضرتك بتدعي على مين يا حاجة؟.. ومين هُمَّ دول اللي «عروا جسد فتاة 6 إبريل»؟!

ردت السيدة بنوع من الخوف والريبة بعد أن رمقتني بنظرات حادة:

– هو أنا عارفة يا اخويا بقى، بيقولوا فيه طرف ثالث موقَّع الدنيا في بعضها، الجيش والشرطة والشعب والإخوان والسلفيين و.... والنبي ما حد عاد فاهم حاجة.

عندما ذكرت السيدة كلمتي «الطرف الثالث»، توقفت عن الحديث معها، والتزمت الصمت، مكتفيًا بالدعاء لمصر أن «يُخرجها الله سالمة – آمنة من هذه المؤامرة غير واضحة المعالم».

أعادت السيدة نظراتها الحادة نحوي، وتبعتها عدة تنهيدات، وبعد خمس دقائق تقريبًا من حالتها هذه، سألتني أسئلة تكشف عن حسن نيتها وطيبة قلبها، كعادة شعبنا المكلوم الصابر دائمًا، من ضمن هذه الأسئلة:

– إنت باين عليك مِتعلم وفاهم كل حاجة بتحصل في البلد يا اخويا، هو الرئيس مبارك فعلاً هيسيب الحكم؟!

نظرت إلى السيدة، وقلت لها:

– إن الأحداث تتوالى والضغوط الشعبية مستمرة لمطالبة مبارك بالتنحي، ولا أحد يمكنه التنبؤ بما سيحدث في السُّوَيْعات القليلة القادمة إلا ربك سبحانه وتعالى.

ثم نظرت إليها مشفقا عليها، وطمأنتها قدر استطاعتي أن مصر ستكون بألف ألف خير مهما حدث لها على يد أعداء الداخل أو الخارج، سواء رحل مبارك أو ظل في الحكم؛ لأن هناك أبطالاً مُخلصين في أجهزة الدولة المختلفة، قادرين على حمل الأمانة والدفاع عن الشعب.

تدخلت في الحديث فتاة جامعية من الواضح أنها ضمن «المرابطين» في ميدان التحرير، وقالت بصوت حزين:

– إن المعلومات التي سربها موقع «ويكيليكس» كشفت عن امتلاك مبارك مبلغًا كبيرًا من المال قد يصل إلى70 مليار دولار في بنوك الخارج، وتحديدًا في سويسرا، غير أموال ولديه وزوجته.

وما إن انتهت الفتاة من طرحها، حتى تَدخَّلَ رجل كان ينصت لحديثنا؛ من الواضح أنه متعاطف جدًا مع مبارك، وأنكر هذا الكلام جملة وتفصيلاً، فقال:

– إن مبارك لا يمكن له أو لأولاده أن يسرقوا أموال الشعب.

وقبل أن ينهي المتحدث كلامه، تَدخَّلَ شاب في العشرين من عمره، يبدو متشددًا دينيًّا. وبعد أن تَحدَّثَ، اتضح من كلامه أنه ينتمي إلى جماعة الإخوان المسلمين أو أحد أجنحتها؛ متوقعًا أن مبارك سيتخلى عن الحكم للإخوان في أقرب وقت ممكن!!

نظرتُ إلى هذا الشاب، وأمعنتُ فيه النظر مرة ومرات، سألته:

– هل هذه توقعات، أم معلومة؟!

رد عليَّ بثقة زائدة:

– إنها معلومة مؤكدة من مصادر موثوق فيها !!

ولأني أعرف جيدًا من هو مؤسس جماعة الإخوان، وأعرف بعض خباياهم؛ نظرًا لتعاملي مع قياداتهم؛ بحكم عملي كرئيس لقسم الرأي بجريدة الدستور؛ قلت للشاب:

– إذًا فالأمريكان أعدوا العدة لضرب مصر في مقتل، وذلك بعد رحيل مبارك وتسليم حكمها لعصابة إرهابية تستخدم الدين ستارًا لتحقيق أغراضها، تماشيًا مع المخطط الصهيو – أمريكي الذي ظهرت بوادره في الشقيقة تونس.

وما إن انتهيتُ من كلامي الذى أعجب بقية الركاب بمن فيهم السيدة البدينة،

حتى فوجئت بالشاب الإخواني يُخرِج لي سهامه اللفظية غير المحترمة ضد شخصي بشكل لم أكن أتوقعه.

وقبل أن أرد عليه، وقف شاب من عمره مدافعًا عني، حتى إن الشابين تَشابَكا بالأيدي.. فيما اكتفى بقية الركاب بالمتابعة من بعيد.

فما كان مني إلا أن نهضت من مكاني واحتضنتُ الشابين، وقبَّلت رأسيهما، وأنهيت المشكلة ببعض الكلمات الطيبة.

المؤسف في الأمر حقًّا أنني وجدت نفسي قد تجاوزت محطة الدقي التي كان من المفترض أن أنزل فيها، وينبغي عليَّ أن أعود أدراجي مرةً أخرى.

فابتسمتُ، ولم أنسَ أن ألعن هذا الفضول الذي سيكلّفني المزيد من الوقت المهدر، بالإضافة إلى جنيه آخر ثمن تذكرة العودة. هذا الكلام عندما كانت الذكرة بجنيه للراكب العادي، و75 قرشًا – نصف تذكرة – للصحفيين!!.. انتهى.